الألف بين الحرف والحركة

الدكتور
عبد الحميد علي أبو مذاسب
جامعة المرقب
الألف بين الحرف والحركة

لقد اختبرت هذا العنوان كمدخل لموضوع يجول في النفس، وهو أوضع بكثير من الألف في حد ذاته وما تعترضه من حالات مختلفة، سواء في رسمه أو في نطقه أو فيما يتوارد عليه من المعاني والأسماء والصفات، فتارة نسميه ألفا وأخرى همزة وحينا ألفا مقصورة، أو نصفه بالمد وهلهم جرا، وإن كان محور هذا البحث والقطب الذي يدور عليه هو الألف، إلا أن الموضوع سيترافق إلى ما هو أشمل من ذلك، إذ ستتناول مثلا ببعض تحليلات الصرفيين التي لها علاقة ما بالألف ومدى صدقها وواقيعتها، بمعنى تأييد الواقع لها - إلى غير ذلك من النقاط المختلفة التي قد تكون بعيدة عن بعضها، ولكن نقطة التقاء الألف.

فهل هي - مثلاً - صوت مستقل أو حركة تابعة لغيرها من الحروف - جميع الحروف الهجائية - دون استثناء؟ وهل لها معنى مستقل؟

وهل هي حركة أو حرف؟ وهل هي زائدة أو أصلية؟ وهل هي فونيم (Allophone) أو ألفون (Phoneme)؟ بمعنى هل تؤثر في المعنى وتغيره أم فقط يقتصر التغيير معها على النطق؟ وهل هي صوت أم لا؟ وإذا كان كذلك، فهل هي أو هو مهموس أو مجهور وما علاقتها بالهزة والنواة والياء؟ وهل هذه الألف أو هل الألف تتولد من لا شيء، كما يعتقد الصرفيون مما هو مستنتج واضح من تحليلاتهم، أم هي فقط تحليلات طغت عليها أو أثرت فيها الصورة الكتابية، أما الواقع فهو بخلاف ذلك تماماً؟ كل
هذه الأسئلة وغيرها سيتناولها هذا البحث - إن شاء الله تعالى - بطريقة مدعمة وأدلة وتحليلات منطقية تزيل عنها كل غموض وتزيح عنها كل لبس.

الخليفة هل هو صوت أو حرف وما الفرق بينهما وما نوع العلاقة التي ترتبطهما؟ الحرف من حيث هو رمز كتابي، أما بالنسبة للخليفة فهو رمز كتابي قد ينطق وقد لا ينطق، وعدم النطق أكثر أحواله، بل يفوت هذا الحد، فأحياناً الخليفة لا ينطق ولا يكتب، فهو إذن موجود بالقوة، إذ صفتا الوجود الريشي وصيا النطق والكتابة معتبرتان، وهذا حالياً تخص الخليفة دون سائر بقية الحروف أو الأصوات اللغوية، هذا هو الحرف، أما الصوت فهو حين ينطق وقد يكتب أي يرمي له، وقد لا يكتب أصلاً، وهذا كثير في الإملاء وأكثر منه في الرسم العثماني الخاص، طبعاً، الكتابة القرآنية الكريم.

من هنا العلاقة بين الصوت والحرف هي علاقة عموم وخصوص، يجهي إذ يلقيان فيما يرسم وينطق معاً، وهي الأعم الأغلب في الأصوات والحرف، ويختص الحرف فيما يكتب فقط، ويختص الصوت فيما ينطق فقط، والمثال - كما يقولون - ينضج الإشكال، فالكلمات «هذا، ذلك، أولك» ينطق فيها الخليفة ولا يكتب، و«الكلمات «كتبوا، وذهبوا، كتبنا» فيها الخليفة مكتوبة، ولكنها إما غير منطوفة أصلاً، أو نطقها بصوت لا يمت للخليفة.

ما سبق ذكره يتبين لنا أن الخليفة حرف لا شك في ذلك، ولكن هل هو صوت أم لا؟ سأأتي نقاش هذه النقطة لاحقاً، ولكننا الآن إلى جانب الحرفية فيه وما لها من خصوصية قد لا توجد في أي حرف آخر، فالحرف من حيث هو له عدة قضايا من حيث علاقته بالمعنى، فهناك حرف تمسي بأحرف المعاني، وفي الحقيقة كلمات، ولكنها أحيانا تبنى على حرف واحد كبعض أحرف العطف والاستفهام والجر، فهذه تستقل بالمعنى، وهو ما أطلق عليه في البحث المعاصر بالمورفي (morpheme)، وقسم لا يستقل.
بالمعنى، وإنما يشكل مع غيره معنى بحيث لو غيّرت هذا الحرف لتتغير المعنى، وهذا يسمى بالفونيم (phoneme). فمثلاً كلمة "قلم" لو غيّرت القاف عيناً اصبحت "علم"، وهي كلمة جديدة لا تمت للأولى بصلة. ولهذا القسمان أسبيانهما حروفاً فقط محاوراً للنظام الكتابي وإلا فهي أصوات لغوية سبقت الرموز الكتابية الحديثة بآلاف السنين كما يقول علماء اللغة، هذا هو الحرف مطلقاً.

أما الحرف الذي نحن بصدد الحديث عنه - وهو الألف - فهو لكثرة ما تعرّف عليه من حالات: تجد كتب الإملاء دائماً تخصص له جانيلاً لا بأس به من الاهتمام والدراسة ويشترك الهاو والبياء - عادة - الألف في هذه الدراسة، فكلما يطلق عليها أحرف مثِّل أو غلة، كما يطلق عليها أحرف لين، ولكن الألف فقط هو الذي يطلق عليه حرف مثِّل والمثِّل في آن واحد، ولا بد أن يكون كذلك، أما الهاو والبياء فلا يجتمع فيهما ذلك، فإما أن يكون حرف لين، وذلك إذا سبقتها فتحة في مثل "يوم، وبيت"، وإما أن يكون حرف مثِّل فقط، وذلك مثل "يقول ويسير"، وذلك إذا سبقت الهاو بضعة والبياء بكسرة (1)، أما الألف التي نحن بصددها، فليس لها إلا أن تسبق بفتحة، وذلك لأنها في الحقيقة جزء من الفتحة ولست مستقلة عنها بحال كما استقلت الهاو والبياء عن الضمة والكسره.

فحقيقة هذه الألف - إذا - وهي حرف مثِّل ليست إلا فتحة طويلة، وهذا أيضاً يصدق على الهاو والبياء أحياناً، ومنها يجدر ذكره هنا القاعدة العامة التي تقول: لا توجد ألف أصلية في اللغة العربية، كالهاو والبياء، فهما أصليتان أحياناً. بمعنى أن الألف لا تكون أبداً كالكاف في كلمة (كتاب) أو العين في كلمة (علم). وإنما جميع الألفات الموجودة في اللغة العربية، إما زائدة أو متقلبة عن أصل، وهذا الأصل محدود، فهو كثير جداً ما يكون واقعاً أو ياء،

(1) انظر: المعجم الوافي في نحو العربية ص 18.
وقليل جداً ما يكون همسةً، وحينما تذكر هذه القاعدة، إننا نتكلم على المستوى الصوفي، أي: نتكلم عن الأسماء المتمكنة والأفعال المتصرفية، أما الحروف والأسماء البنية والأفعال الجامعة فلا علاقة لها هنا؛ لأن بعض الألفاظ التي تظهر فيها تصنف على أنها مجهولة الأصل، فهذين الأمر- إذن - ليست حرفًا كفية حروف الهجاء بدأها الكلام وتستقيل بالوجود، ولكنها في الواقع لا تزيد عن كونها جزءًا، من حركة الفتحة. فما هو الفرق بين الحرف والحركة يا ترى؟

الأنظمة الكتابية مختلفة ومتنوعة، ومن بينها، بل ومن أهمها: نظام الكتابة العربية لعل هذا النظام دون كثير من الأنظمة الأخرى يتصف بالإجحاف وعدم الإنصاف بين أصوات اللغة عند رسمها، فجميع اللغات - أو التي نسمع بها على الأقل تحتوي على قسمين رئيسين من الأصوات: ساكنة ومت없قة - وعبارة أدق - صحيحة ومعنوي، وهو ما أطلقنا عليه حرفًا وحركة، وعدم الانفصاف هنا هو أن نظام الخط العربي لم يخصص للحركات حيزًا على السطر كالحرف، بل إنه فرق بين الحركات، فإن كانت طويلة فحظها - أحيانًا وليس دائمًا - أحسن من القصيرة التي لا حق لها مطلقاً في الظهور وسط السطر، مما ترتب عليه كثير من الخلط عند التحليل الصوفي، وهو ملاحظ عند أول نظرة فاحصة، ولنناقش معاً - على سبيل المثال - لتوضيح هذه النقطة: القاعدة الصوفية التي تقول: إذا تحركت الواو أو الياء وانفتح باقلها قليانا ألفا، فلو أننا نؤمن باستقلالية الحركة وأنا صوت له صورة وحدود محصورة، ويؤثر في المعنى مثله مثل أي صوت آخر واستقطعنا له جزءًا من السطر لتغيير هذه القاعدة رأساً على عقب ولكنا بطريقة أكثر منطقية، ولنكتب مثالاً باللاتينية؛ لأنها لا تستقطب الحركات من حسابها في الكتابة. فمثلاً لو كتبنا "قلا" و"سار" которые هي في الأصل "قول" و"سير" - لو كتبناهما بهذه الطريقة: (qawala) / (sayara) ثم أصبحت بعد

انظر: لسان العرب: ج 1 ص 3.
إسفاط الواو = ولياء = % ولياء = ولياء بالله ، فأتنا تجدنا قد وصلنا للنتيجة التي نافذها الصرفيون وتوصوا إليها بالقلب وهي لا تحتاج إلى أكثر من إسفاط الواو ولياء تخفيفاً، وبقيت حركاتهما اللتان أضيفنا إلى حركة فاء كلتيهما فأصبحت فتحة طويلة، وهو الاسم الصحيح للخليفة.

ومن هنا يتتبين لنا كيف أن لنظام الرسم أثر أولا على التحليل الصرفي، وجعلنا نعتبر أشياء ونعب عنها، وهي في الواقع لا وجود لها، أو بعبارة أخرى هناك طريقة للتحليل أقرب للواقع وتتمشى مع العقل أكثر، خاصة بين علماء اللغة، فلو قلنا بدلا من القاعدة الصرفيّة السابقة: إذا وقعت الواو ولياء بين فتحتين سقطنا وأصبحت الفتتحان فتحة طويلة، لكانت نتيجة طبيعية سهلة الإدراك، وسأسأل مثل آخر مشابها لهذنا، وللعلاقة بالألف أيضا، وهو ما يسميه النحاة بميم العماد، وهي التي تتوسط بين حرفي الخطاب (التأن والكاف) وبين الألف التي تأتي في النهاية كعلامة على تنية المخاطب، مثل "أنتما وإنكما" وهما تنية الضمير أنت، والكاف الذي هو ضمير نصب هنا؛ لأنه وضع اسمًا لـ "ألن"، ولكن إذا كان أصل الضمير في الفتح الظاهر على الواو والكاف عند الإفراد، والألف الذي هو علامة تنية يتناسب مع هذا الفتح الذي يظهر أصلا على الضمير، فلماذا كل هذه التغييرات التي هي ضم ضمير، وإقحام الميم التي سميتها حرف عماد؛ لأن الألف اعتمد عليها؛ لأنها هيئته له الفتح المناسب له، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا الضم أصلا؟

يقول علماء اللغة العرب: إن ضم النتاء في "نات" هو نص في حاشية الصبان (3) - لأن الميم تشبه الواو في المخرج، أي إنهما شفويتان وفي معنى الجمع - لأن الواو غالبا للجمع - وفي هذا إشارة أيضا إلى أن المشى نوع من الجمع وآلا لذا رشحت الميم دون بقية أحرف الكتابة لهذا الغرض

(3) انظر: حاشية الصبان على الأشموني ج1 ص109.
- ونحن آتينا بهذه الميم فرأوا من اللبس الذي قد ينشأ فيما لو ألحقنا الألف بالضمير مباشرة عند الثنية فقدنا «أنتوا وإنكوا» بدلاً من «أنتما وإنكم»، لأن هذا من شأنه أن يثبت بالمفرد والافق للإشكال فقط، إلا أن هناك تحليلًا آخر لعلماء اللغة المحدثين تعرضه أمام القارئ وترك الخيار له في الحكم والترجيح أو التسوية في القبول والرفض.

يرى علماء اللغة المحدثون أن اللغة العربية تاريخياً مثلها مثل بقية اللغات الأخرى تحتوي على المفرد والجمع فقط، ويؤيد هذا أن الثنية أقل الجمع، وأن كثيرا من الآيات القرآنية تعامل المستنى معاملة الجمع في رد الضمير، فثنا قوله تعالى: «قَالَ اللَّهُ ﴿أَنْتَ طَيِّبُانَ﴾ (4) بدلاً من «طِيِّبَتَينَ»، وثنا قولهم تعالى: «إِنَّ طَيِّبَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (5)، وليس (افتتحاً)، إلى غير ذلك من الشواهد التي تظهر بكثرة ملتفة للنظر في كتاب النحو والتفسير.

إذن دعونا ننتشر أنه مضت فترة طويلة من الزمن واللغة العربية ليس فيها إلا المفرد والجمع أسوأً بقية اللغات الأخرى، ولكن بعد وصول اللغة أرادوا أن يميزون نوعاً من الجمع وهو ما يدل على اثنين فقط بعلامة معينة، فعمدوا لصيرفة الجمع التي هي «أنتم»، وأضافوا إليها «الألف» التي هي العلامة الطبيعية للثنية وأصبحت كما هي عليه الآن. ظننا هذا من قبلما أكثر وما قبل في أن يكون لا يمكن أن ينسحب على «إنكم» سواءً من وجهة النظر العربية، بأن الميم للاعتماد وضم الكاف لما في الميم من تشابه مع الواو، أو من وجهة النظر الحديثة وهي أن الجمع «أنكم» أردنا تمييزه، فرددنا الألف فأصبحت «إنكما» وكذلك «يناكم»، وحتى «إناكم»، لأن الفرق فقط هو أن ما قبلهم مضمر في حالة الغائب «إن»، أما الغالبة وهي «إنها»، وثنايته «إنا» فإنا نحتاج إلى نفس الخطوات مع التغييرات التي أجريناها مع «إنكما» و«أنتم» ولنترك الخيار للقارئ في تأليد أي من الرأيين.

۳۶۸
ولنرجع الآن للذين، فقد قال ابن منظور، "وسمي بالذين، لأنه يقال جميع الحروف". وهو يقصد أن هذا الحرف أو الزمر يدخل على جميع الحروف وينظر في أي مكان من الكلمة قبل الفاء وعدها، وبعد العينين وبعد اللام في مثل: "اكبى، كاتب، كتب، كتاب، وكتب، في حالة النصب"، وقد أشرنا في بداية البحث إلى أن هذا الزمر أطلق عليه العديد من الأسماء، وقد قسمه ابن منظور إلى ألف وصلة وقائع وأصلي ونائم، وهذا إنما ينطبق على الهماذ لا على الألف.

إذن هناك العديد من الحروف تظهر في صورة الألف وهي ليست كذلك، وهذا بالرغم أن نزعة أن الألف له عدة أسماء، فنون التوقيع الخفيفة مثلها في النسخة، تظهر في صورة الألف، وكذلك التوقيع في حالة النصب مثل: "أدا"، وهما الوصل. هذا من حيث أسماه، أما من حيث استعمالاتها ومعانيها: فهي تكون أسمآها أعني ضمير رفع داً على أثنيين مبنياً على السكون في محل رفع فاعل دائما، كما أنه ينوب عن علامتي إعراب، ينوب عن الفتحة في الأسماء الحماسة، ينوب على الضمة في المشن، ويكون مع النون علامة الثني في حالة الرفع وفي غير الإضافة، أما في حالة الإضافة فإن النون تحذف ويبقى الألف وحده علامة للرفع، وهي علامة لظيفة، ولثنية - أيضا - وهي علامة معنوية. ومن خواص الألف أنه يدخل على بعض الحروف في كسبها معنا ما كانت لتوصف به لولاه، فمثلها: حرف الميم إذا دخل عليها الألف يكسبها عشرة أحوال: خمسة على أنها اسمية، وخمسة على أنها حرفية، أي: من حروف المعاني، ولولا ذلك لبقيت من حروف الهجاء التي هي في الواقع لا تزيد عن كونها

(6) انظر لسان العرب، ج1 ص1.
(7) انظر: المرجع السابق الصفحة نفسها.
(8) سورة العلق، الآية 16.
(9) انظر: المفرد العلم في رسم القلم لسيد أحمد الهاشمي، ص 147 - 150.
أسماء لرموز كتابية، وهذه الألف لا تكون في بداية الكلمة، أما التي تقع في بداية الكلمة فهي همزة الوصل، وإنما سميت ألفًا لأنها تظهر دائما في صورتها، أما الألف الليلة فهي لا تكون في بداية الكلمة؛ لأنها لا تكون حرفًا أصلا من بنية الكلمة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وتدخل أيضا على حرف اللام، واللام واليم من أكثر الحروف تكرارا في اللغة العربية، إن لم يكن في أغلب لغات البشر، لعله لسهولة نقاطها وبعد مخارجها عن حروف الحلق المشهورة بالصعوبة وخلو أكثر اللغات منها، لهذا ولغيره من الأسباب كانت الألف أكثر الحروف ظهورا في الكتابة على الإطلاق، إلا أن ابن منظور قال بأنها أكثر الحروف نظفا، والألف ليس لها نطق مستقل، وإنما تكتسب نطقها من مد حركة الحرف الذي تدخل عليه أو تقترن به، وهي حين تدخل على اللام تكسب معاني مختلفة لا تصل إلى كثره الميم، ولكنها أيضا متعددة فاللام مع الألف تكون نافية، وتعمل في الجملة الإسمية عمل «كان» تارة، وعمل «إن» تارة أخرى، حسب المعنى الذي يريده مستعمل اللغة، وتكون نافية، فتعمل الجزم في الفعل المضارع، وتكون زائدة، فلا عمل لها ولا معنى كذلك، ولا أقصى بالزيادة الألف وحدها، وإنما اللام مع الألف، مثل قوله تعالى (ما معنى أل ذُجَّد) (10) وتدخل على النون تغيير معناها وبناءها، فبدلا من أن تكون نون نسوا مبنية على الفتح في محل رفع فاعل، حين تدخل عليها الألف تصبح نون المتلكمين، وتبني على السكون؛ لأجل الألف بدلا من بنائها على الفتح بدونه، وتتعدد حالاتها الإعرابية، فبدلا من أن تكون في محل رفع فقط على الفاعلية بدون ألف، تكون في محل رفع على الفاعلية، أو النباهة، أو في محل نصب على المفعولية، أو في محل جر بحرف الجر أو بالإضافة، وتدخل أيضا على أخويها الواو والياو اللذين يشاركانها في أنها كلاهما تشكل أحرف العلة، فتدخل على الياء فتصبح حرف نداء ينوب مناب الفعل «أدعو» ولولا الألف لما كان هذا المعنى للياء أبدا.

(10) سورة الأعراف الآية 12.
وتدخل أيضًا على الواو فتكسبيه أيضًا معنى جديدا، وهو نوع خاص من النداء يسمى الندبة مثل: وزيداه!، بل لا بد أن يقوى هذا المعنى بألْف أخرى في نهاية الاسم المنذوب كما هو واضح من الأمثلة. كذلك تشكل (phoneme) وال ألف مع الهاء ضمير المؤنثة الغائية، أما من حيث الفونيم والمورفيم (morpheme) فالألْف إذا كانت ضميراً فإنها مورفيم؛ لأنها تضيف معنى مستقلًا جديداً للكلمة، وهذا هو المورفيم، وكذلك إذا دخل على الفعل فحين تقارن بين كَتَب و كَتَب تجد المعنى مختلفًا، وتجد معنى جديداً، والسبب الرئيسي هو إضافة الألف، فهنا يمكننا أن نعتبر أن مثل هذا الألف مورفيم (morpheme) أما إذا دخل على (ما) و (لا) - مثلًا فإنها غير المعنى فقط، ولكن الألف هنا لم يستقل بالمعنى، وإنما كون مع الميم واللام النفي أو النهي، فهو إذن فونيم (phoneme)، نتضح أن أذكر أن هذه الألف تدخل على الواو في بداية الكلمة، وقد كتمنا عن هذا، وهي فونيم أيضًا، ولكنها تدخل على الواو في نهاية الكلمة، وهي التي تسمى بالألْف الفارقة وسماها ابن منطول (11) بالألْف الفاصلة والمعنى واحد، إلا أنه أخطأ عند التمثيل فألحقها بالواو التي من بنية الكلمة، وهي إنما تدخل على الواو الجماعة التي هي زائدة على الكلمة، فقال في مثل (شكروا) و (كنروا) وهذا صحيح، ثم قال: وكذلك الألف في مثل (يغزوا) و (يدعوا) وهذا حظًا، ولكنه من سهو النسخ، أو ربما أراد (لم يغزوا) و (لم يدعوا)، أو هو خطأ مطبعي تجب الإشارة إليه. وهذه الألف - أعني الفارقة - تشبه كثيراً همزة الوصل التي تسمى أحياناً ألفاً (12) في كونها تكتب ولا تنطق، إلا أن سبب عدم نطقها يختلف عن همزة الوصل، فألف الوصل لا تنطق تخفيها في درج الكلام وتنطق آبئ، أما هذه الألف فهي لا تنطق أبداً كصوت مستقل؛ إذ لا وجود لها في الحقيقة، وإنما تنطق بنا لفتح ما قبلها "التنوين".

(11) لسان العرب ج 1 ص 1.

(12) انظر: المعرف بَدِّعة التَّعريِف - شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ج 1 ص 101.
بالفتح وهذه - أي الألف الفارقة - إينما سبقت بضمة طويلة مما يجعل من المستحسن ظهورها في النطق.

العلاقة بين الهمزة والألف

الألف - كما أشارنا سابقاً - تتألف جميع الحروف كما يشير إليه اسمها، ولكن هناك علاقة خاصة بينها وبين الهمزة، فالهمزة إذا سببت هي مفتوحة قلب - أو عبارة أدق سببت - ألفاً، مثل: «سأل تصبح سال» كما قرى بها في سورة المعارج (سال سابل) (13)، والآلف إذا أردنا أن نبرزها أو نحركها - على افتراض أنه يمكن تحريرها - فإنها تكتب وتنطق همسة، كما قرى بها في سورة الفاتحة (ولا الضالين) (14) وكذلك عندما نضطر لتعليم النشأ في الكلمات، فإننا نبدأ أولاً بتعليم وتحفيظ رموز الكتابة: ألف، باء، تاء، مطلفاً، أي دون الفرق بين المعجم منها والمهمل، ثم بعد حفظهما عن ظهر قلب، ننتقل بالطفل إلى التفريق بين المنقوط وغير المنقوط - المعجم والمهمل - وبعد أن يحفظ هذه ننتقل إلى تعليمه الحركات وكيف تنطق، فالباء مع الضمة تنطق «بَو» ومع الكسرة "بِب" وهكذا بقية الحروف، ولكننا نبدأ بالآلف! كيف تظهر عليه الحركات، وهو لا يقبلها؟ وإننا - ولا شك - نلجأ إلى أقرب الحروف إلى الآلف، وهو الهمزة، فنقول: الآلف مع الفتحة ينطق "ا"، ومع الضمة "و" ومع الكسرة "ي" إلى آخره، هذا ما وصل إليه خيالنا، وما اتفق عليه الجميع.

وإذا ما رجعت إلى المعروف باداة التعريف في كتب النحو، فتجدها تعتبر الألف التي تصاحب لام التعريف همزة وصل، وهي الهمزة الوحيدة التي تلحق الحروف، أما بقية الحروف فجميع همانيها قطع، مثل: "أم" أو "إن" النص، هذه الهمزة التي تلحق أداة التعريف لا عبر عنها النحاة إلا

(13) سورة المعارج، الآية 1.
(14) سورة الفاتحة الآية 7.
بالألف، فيقولون: المعروف بالألف واللام (15). وكما أن الهمزة إذا سهلت، قلبت ألفا في حال الفتح، فإن الألف، أيضاً، أحيانا تقلب همزة في بعض التغييرات الصرفية التي تعتمد خروج اللين والعلة، فمثلاً كلمة «قلاادة ورسالة» عند جمعهما جمع تكسير تجد الألف فيهما تقلب همزة فنقول: «قلائد ورسائل»، وهذا، أيضاً، يدل على العلاقة الوطيدة بين الألف والهمزة، حتى إذا تغير بالهمزة وترد الألف، ونعبر بالألف ونزيج الهمزة.

يقول إبراهيم أنيس في كتابه «الأصوات العربية» (16) نقلاً لرأي ابن جني في كتابه «سر صناعة الإعراب»: «ويبدو أن ابن جني كان يعتبر كلمة الألف اسمًا للصوت المنطوق به همزة، فالألف في رؤيةَ رمز المكتوب والهمزة، رمز المنطوق (17)»، ورأى ابن جني - في اعتقاده - كان قبل أن يفرق كتابة بين الهمزة والألف بالعين الصغيرة، التي توضع على رأس الألف غالباً، كرمز مميز للهمزة، وقد تكون على الألف، أو الواو، أو الياء، أو على الرط، دون أي حرف حسب حركتها وحركة ما قبلها، كما هو مقرر في درس الإملاء والخط.

وعلاقة الألف بأخويها الواو والياء لا تقل أهمية عن الهمزة، وقد عقد لها الصرفيون بابا يسمى الإبدال والإعلاء، بالإضافة إلى بابي التصغير والتكسير، فإنهم يقولون: إن الألف الزائدة تقلب دائمًا واأوا في التصغير والتكسير (18)، فنأتي تقول في تصغير «كاتب» وتلكسيرة: «كوبيب» و«كوابب»، وبالمثل فإن كلاً من الواو والياء ينقلبان ألفا إذا تحركتا وفتح ما قبلهما، وقد سبقت الإشارة لهذه القاعدة الصرفية مع ما عليها من ملاحظة.

(15) انظر: المعروف بأداس التعرف - شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ج1 ص105.
(16) انظر: الأصوات اللغوية ص115.
(17) انظر المصدر السابق: الصفحة نفسها.
(18) أما إذا كانت الألف غير زائدة فإنها ترجع إلى أصلها، وفقاً للمقاعدة المشهورة «التكسير كالتصغير يرد الأشياء إلى أصولها». 
هذا بالنسبة للألف الزائدة، أما المنقولة عن أصل فإنها ترد إلى أصلها في التكسير والتصغير، فتقول في "باب" : "أبواب" و"يبوب"، وفي "ناب" : "أناب" و"نبيب"، هذا ما يقرره الصريفيون، ولكن انقلاب الواء ياء أو ألفا، والعكس. إنما هو من تأثر الصريفيون بالنشرة الكتابية، وهذا في نظري ما هو إلا ضرب من الأوهام، إذ الواقع لا يوجد ألف، ولا واء ولا ياء، وإنما هي حركات طويلة ميزناها عن أصولها القصارية. ومعظم هذه القواعد لا تتمشى مع طبيعة اللغة التي يجب أن نخضع القواعد لها، لا أن نخضعها للقواعد، أي إن الذي ينسجم مع اللغة هو الدراسة الوصفية للعباءية، والواو في كلمة "طويل" كصوت له مخرج وصفة وحركة، والواو في "بطول" الذي هو مجرد حركة فقط، وإن اتفقا في الرمز المكتوب. وتمثل هذا يقال في الياء، ومن هذا يظهر لنا جليا تأثر التحليل الصريفي بالشكل الكتابي مع أن اللغة يجب أن تحلل على المستوى الصوتي الذي لا يختلف حتى وإن كتب اللغة بالصينية، أو بطريقة برابل.

ولننتقل الآن إلى نقطة أخرى وثيقة الصلة بالموضوع، أي نغمس الألف الذي نحن بصدد الحديث عنه، وهذه النقطة هي: "الجهر والهمس". وهي تتعلق بالألف باعتبار أنه صوت متفوق لا حرف مكتوب، فتقول: من حيث الجهر والهمس: أصوات اللغة إما مجهورة أو ممهمة، ولا يوجد حالة ثالثة، وهو قاسم مشترك بين جميع اللغات، ويرجع الجهر والهمس إلى طبيعة الصوت نفسه ولا دخل للتكلم فيه، بمعنى أن هناك أصوات مجهورة وأخرى ممهمة في جميع لغات العالم، وسببه تذبذب الحبال الصوتية عند مروار اليواء الخارجي من الرئة بها عند النطق بالصوت، فأحيانا تذبذب ومعرقل مجرى اليواء لدرجة أنها تؤثر على كلمة اليواء الخارجي من بين الشفتيين، فهو - أي: اليواء - مع الممهمة أقوى منه وأكثر من المجهور، ويمكن تميز الجهر والهمس، وقوة اليواء أو ضعفه تبعا لذلك بتجربة عملية يسيرة نصت عليها كتب اللغة(19)، وقد جعل الله لكل صوت ممهمة.

(19) انظر الأصوات اللغوية: ص 20.
قرينا مجهورا، فمثلا: النبر والدل، والباء والدال، والسين والضاع، والسين والضاع، والجيم، وهلم جرا. فالحرف الأول من هذه الثمانية مهموم والثاني مهمور، وكل حرفيين من هذه الحروف يشتراك في المخرج، والسر الإلهي يكمن في أن الأصوات الساكنة (consonants) توزع بالنسبة للجهر والهمس على النحو التالي: 50% مجهور تقريبا بينما النصف الآخر مهموس، ولكن هذه الحروف عندما تشكل منها كلمات تتناقلها أصوات العلة (vowels) أو الحركات وهي كلها مجهورة، وهي حوالي 50% أيضا، فمثل كلمة "كتب" تكون من ثلاثة حروف: أصوات ساكنة، وثلاث حركات: أصوات متحركه، إذن تكون كلمة "كتب" من ستة أصوات، الكاف والباء فقط مهموسه، والباقي مجهورة، مما يسهل على الأذن التفاصيل الصوت بسهولة، ولو كانت الحركات مهموسه أيضا، وهي تظهر بمقدار 50% بالإضافة إلى النصف الآخر مهموس - لاصبح معظم الأصوات مهموسه مما يجعل من الصعوبة بمكان على الإنسان التفاصيل الأصوات.

ونرجع الآن للألف بعد هذه الفذالكة عن الجهور والهمس، والتي لابد أننا قد استنتمينا منها أن الألف صوت مهمور، وهو يأخذ نصيب الأسد في الظهور مقارنة بأي حرف أو صوت آخر، وظهورها متزايد، إلا أنها على مستوى الكتابة أكثر ظهورها منها على مستوى النطق، إلا أن جانب النطق أهم بالنسبة لعالم اللغة، وهي تظهر على هذا المستوى مفخمة حينا ومرقة أحيانا أخرى وفقا لما يسبقها أو يلحق بها من الأصوات، وظهور أحيانا ممالة إلى الكسرة وأخرى غير ممالة، فإذاً للألف أنواع كثيرة، وهذا التفخيم أحيانا يغير المعنى (20)، وخاصة على مستوى اللهجات، فمثلأ "جار" أي: اسم فاعل من "جري" للملام والهروء، و"جري" بمعنى قريب مني في السكن، الأولى مرقة والثانية مفخمة، وكذلك "خال" أي: فارغ، و"خالي" أي: أخر.

(20) فإن لم يغير المعنى فهو ألفون (allophone) وهو الغالب في القصصي، وإلا فهو فوني (phoneme) وهو ما يوجد غالبا في اللهجات.
أمي، وما دام الأمر كذلك فهل للألف هذه مخرج محدد كبيكية الأصوات؟ يقول الزمخشري في كتابه المفصل (21) "الهمزة والهاء والألف من أقصى الحلق"، وقد نقل ابن يعيش عن سيبهته رأياً مشابهاً، إلا أن الجدول الذي اعتاد رسمه علماء اللغة المحدثون لشرح مخارج الحروف لا يشتمل فيه عادةحرف الألف، ويجبون أحيانا الباء والواو باعتبار أن الآخرين ينتمون حالات تظهران فيها أنيصاف سواكن (semi-consonants) في مثل "يوم وليل"، أما الألف فإنه في الحقيقة يظهر جزءا من الصوت الذي يسبقنه دائما لأنه الصوت الوحيد الذي لا تبدأ له الكلمة، أي إنه لا يظهر إلا معتمدا على صوت سابق، كما أنه يؤثر باللاحق أيضاً، فماحشه إذن كثيرة فيكون من الشفقتين إذا سبق باء أو ميم، ويكون من الحلق إذا جاء قبله حرف حلق مثل الخاء أو العين، الخ.

هذه هي الألف أكثر الحروف ظهورا في الكتابة، وأكثر الأصوات تغيرا في النطق، وله الباع الطويل في نقاش النحاة وتحليل الصريفيين، فقلما تجد كتاب نحو أو سوف أو لغة أغلب هذه القضية، بل كثيرا جدا ما تجد الألف في المعالم وكتب اللغة والمقالات المختلفة عنوانا رئيسا، بالإضافة إلى أن كتب المعارِج تبدأ به عادة، وقد عرفه الإمام الرازي (22)، بأنه "حرف هجائ مقصورة موقف"، ولا أدرى ما معنى قوله موقفه !! هل تزيد عن معنى مقصورة أم هي؟ لأن الألف تكون ممدودة حتى تتولد عنها همز، وتكون مقصورة عن المد (23) أي موقفته عليه، ولعل الوقف درجة أقصر في النطق من الألف المقصورة، وهذه الألف - أعني الممدودة - أخذت في

(21) انظر: شرح المفصل لابن يعيش: ج 10، ص 123.
(22) انظر: مختار الصحاح: ص 1.
(23) هناك ألف تسمى ألف التأنيث، وهي مقصورة وممدودة، مثل: ليل، وصحراء، وحيث إن معناها واحد، وهو التأنيث، فهما يعتبران لومورف (allomorphs) لمؤنثهم التأنيث، وقد تتلخص من هذا أن الألف قد تكون فونيا واللفونا كما تكون مورفيا ولومورفيا، وقد تكون صورة لا معنى لها ألبية.
الرسم العثماني خمسة أشكال كلها يصدق عليها اسم الفتحة الطويلة، وهي:
المحذوف، المخصص، الانقلاب، المضفر والآلف العادية، بالإضافة إلى
ثمان كلمات في القرآن: وَاَوْ وَتَنْطَقُ أَلْفَا، وَبِهِ: (الصلوة، الزكوة،
الحياة، النجوة، الغذوة، كمشكورة، ومنوة، الرضا)، فكل وَاَو في هذه
الكلمات تنطق ألفا تمددة، والرسم العثماني سنة متبعة.

والمقصورة ظهرت في شكلين هما: الآلف مثل (دعا) وَ (الياء مثل
مشى) وهذه الشكلان الإملائيان لم يختلفا في صورتهما لمجرد الاختلاف،
إنما بناء على قاعدة يجهلها هذه الأيام كثير من المثقفين كالطلبة والكتاب
وغيرهم ممن جعلوا الفن رفيق دربهم ومصدر رزقهم، وأصبحت اللغة
العربية وقواعدها - وعلى رأسها الآلف - أضعف من الأيام على مواند اللسان
حتى بين ذوي المستويات العالية، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولعل الله
يجعل بعد العسر يسراً.

---

277
مصادر ومراجع البحث

1. القرآن الكريم.
2. الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، القاهرة، ت.ط :1971م.
3. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، محمد الخضري علي، مطبعة الحلبي، مصر، ت.ط : بلا.
4. حاشية الصبان على الأشملوني، مطبعة الحلبي، مصر، ت.ط : بلا.
5. شرح ابن عقيل بحاشية الخضري، مطبعة الحلبي، مصر، ت.ط : بلا.
6. شرح المفصل لابن يعيش، القاهرة، وبيروت.
7. لسان العرب لابن المنطور، بيروت.
10. المفرد العلم في رسم الفلام، أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية، مصر، ت.ط : بلا.

***